

لامية العرب

دراسة فنية موضوعية

هاشم العزام (*)

المخلص:

سعى هذا البحث إلى قراءة لامية العرب للشنفرى قراءة فنية، وموضوعية، وقد جاء البحث في مقدمة ومحورين، تناول المحور الأول مفهوم القيم العربية التي تواضع عليها العرب (ونظرة الشاعر)، أما المحور الثاني، فقد ركّز على الإشارة إلى الموضوعات الفنية وربطها بموضوع القصيدة.

Abstract

The Arab (Lamiya): A Technical Objective Study

This study aimed at providing a technical objective explication of Al- Shanfara's Arab (Lamiya).

The study consists of two parts in addition to the introduction. The first part deals with the Arab values generally a greed upon by Arabs at that time?

While the second section concentrates on explicating technical and objective subjects relating them to the main theme of the poem.

Key words: Al- Shanfara, Lamiya, Technical, Objective, Literary Criticism.

(*) د. هاشم العزام: أستاذ النقد الأدبي، قسم اللغة العربية، جامعة البلقاء التطبيقية، كلية إربد الجامعية. professor of Literary Criticism, Department of Arabic Language and Literature, Al-Balqa Applied University, Irbid University Colleges

لامية العرب دراسة فنية موضوعية

المقدمة

إنّ الوصف لثيمية بأنها اجتماعية والأخرى غير اجتماعية في إطار الأدب، غير دقيق؛ لأن معاني الأدب في المطلق معاني اجتماعية وفردية، فالأدب نسق لغة، واللغة فعالية ثقافية اجتماعية وفردية في الوقت ذاته، بل أكثر من ذلك، هي إنسانية ومحلية⁽¹⁾، هذه الثيمات الاجتماعية وأمثالها في بعدها السلبي، تستحيل مجازيتها في كثير من النصوص السردية إلى عنصر بنائي فاعل، ينتج وظيفة المناداة والاعتراض والإعاقة، ليس لسبيل البطل فحسب بل للجماعة بكليتها، مما يتيح لها خاصية الإنتاج الدلالي المتجدد⁽²⁾.

إنّ مطلق الدراسة لمفهوم القيمة في نص قصيدة الشنفرى "اللامية" يتركز ابتداءً على محددات أساسية، الأول ما تواضع عليه العرب في مجتمعهم القبلي من العادات والتقاليد، ونظرتهم للحياة من خلال هذه العادات، والثاني نظرة الشاعر الخاصة، وما تتطوي عليه من علو همه وطموح وإصرار، والشنفرى سيصوغ مشروعه- في نصّه الشعري- موضوع الدراسة، من خلال هذه النظرة المتكافئة القائمة على الكرامة التي لا تتحقق إنسانية الإنسان إلّا بها، وهذا ما يميّز الإنسان عن باقي ما خلق الله.

(¹) مجاز العائق الاجتماعي في القصة السعودية، عالم الفكر، 2005، ع1، مج 34،

ص68.

(²) المصدر نفسه.

المحور الأول: مفهوم القيمة وفق نظرة الشاعر:

إنّ نصّ اللامية ذائع الصيت، يتوفر على موضوعات كثيرة تصلح للدراسة على الصعيدين الموضوعاتي والأساليبي، ولكن البحث والباحث فضلا الحديث عن القيم المعنوية، هذه القيم التي تعتبر تجربة الشنفرى الشعرية في اللامية واصفة لحياة اجتماعية موسومة بالأحداث الكثيرة، تُعبر عن أزمة عميقة يعيشها الشاعر، لذلك "اكتشاف الموضوعات أو المعاني في العمل، تقتضي منّا إحداث الروابط بين العمل والعالم خارج هذه الروابط"⁽³⁾، لذلك يمكن معاينة هذه القصيدة على أنها انحراف واضح على مستوى البناء الفني والموضوعات التي طرحتها.

تضع مقدمة اللامية إمكانات عديدة لترابط النسيج النصي على مستوى البناء في الموضوعات المطروحة، هذه الموضوعات وزعت ورتبت بشكل خاص، عكس هذا الترتيب الموضوعاتي ذلك الترابط في نسيج النص، والسبب أن الأسلوب الذي رتب فيه الشنفرى الموضوعات، يرتبط أساساً بعقله وفكره الراض أصلاً لها، قبل أن يرتبط باللغة، ولأن العقل العربي بني على تقديس فكرة الشجاعة، وتليها فكرة الكرم، مما يدفعك للتأمل والسؤال، لماذا قدم الشاعر الشجاعة على الكرم في نصه، ويجيبك على هذا السؤال مقدمة القصيدة بما تضمنته من فكرة الرحيل، في ضوء هذا الفهم يمكن معاينة نصّ الشنفرى "اللامية" على أنه انحرافاً عن الأسلوب الشعري، يوازي القدر الذي رأت القبيلة انحرافاً في سلوك الشاعر الاجتماعي؛ فالشنفرى، في اللامية، قدم درساً راقياً للفقراء، ولا يقصد البحث الفقر المادي وحسب، بقدر ما يقصد الفقر المعنوي من خلال حديثه عن المروءة والكرامة

⁽³⁾ مجاز العائق الاجتماعي في القصة السعودية القصيرة، عالم الفكر، مج 34، ع1، 2005، ص66.

والإبء والأنفة وعزة النفس، تلك القيم التي تتطلب في حدها الأدنى الشجاعة والصبر بمعنى أن ينتصر الإنسان على ذاته بتطهرها من الدرن النفسي والصبر على متطلبات الجسد المادية والغرائزية، ولذلك اخفى الحديث عن الاحتياجات المادية التي تتعلق بالجسد كالجوع مثلاً وتعالى عليها، أو قل من شأن المال، شاغل الناس حتى في زمانه، فهو ليس هدفاً بحد ذاته، ولا هو مدعاة للخلاء، عند الحديث عن القيم الإيجابية نلاحظ أن الشاعر أطال الوقوف، وألقى بقعاً من الضوء عليها، وهو يقابل ويقارن بين القيم بطريقة يترك للمتلقى فيها تلمس الفرق بين حياتين، الأولى قائمة على الحرية والكرامة، ويجعلها مركزاً، ويقاقل من أجلها، ويصبر على الإنسان والجغرافيا في سبيل الحصول عليها، وبين الحياة الأخرى التي يملؤها الذل والرخص الإنساني، فالشاعر يمتلك نظرة للحياة عمادها محمود الأخلاق عند العربي، هو مقدم فيها، ومتقدم، أما ما يتقل كاهل الإنسان، ويقلل من همته، كالحاجة إلى المال والطعام، فهو يتعالى عليهما كما لا يشغله أن يكون غنياً، هو دائم البحث عن المواقع المتقدمة وبالوسائل التي تضمن له عزة النفس والكرامة، نظرة الشاعر لمنظومة القيم تغلب عليها نظرتة الشخصية للحياة، التي ليس بالضرورة أن تتسجم مع نظرة القبيلة أو بعض أفرادها، إذ القبيلة تملك هيمنة على كثير من البشر، وتجعلهم يدورون في فلكها؛ لأن الخروج عليها جريمة، فهي مخلب مجتمعي قوي، يستخدم حين التمرد على قيمها، فنظرة الشنفرى تعكس معاناة الشاعر من السلوك الجدلي معه، المتمثل في نفيه وطرده ورفع الغطاء عنه، إن نصّ اللامية، حاول أن يربك ويخلخل القواعد الأساسية التي يقوم عليها المجتمع القبلي، فقوبل الشنفرى ونصه بالرفض فنياً وموضوعياً، وهذا يعكس موقفه وجماعته من القبيلة بشكل جلي، وهو موقف يضاها في شراسته

واستفزازيته، قوة المنع التي تعرض لها، كما أنه هجوم شرس على منظومة من القيم تتحكم بسير الحياة، إذ ينطلق موقفه من فكر يستند إلى أيديولوجيا ثورية عكسية نظرة الصعاليك لمنظومة القيم التي تمردوا عليها، ولعل مقدمة القصيدة أنبأت بهذا التوجه الثوري، على منظومة القيم التي يحتكم إليها المجتمع القبلي، فلم يسر في قصيدته على سنن الشعراء في بناء قصائدهم، ومن المعروف أنّ الاهتمام بمطلع أي عمل أدبي، من الأمور التي حظيت باهتمام القدماء، فقد كانوا يقولون احسنوا معاشر الكتاب الابتدءات، فإنهن دلائل البيان، وكانوا يوجبون على من يتصدى لمقصد من المقاصد أن يكون مفتتح كلامه ملائماً لذلك المقصد، دالاً عليه⁽⁴⁾، والمقدمة ليست ذلك النص الذي يمكن تجاوزه بسهولة، بل أنها العتبة التي تحملنا إلى فضاء المتن المركزي الذي تستقيم قراءتنا له بالاطلاع عليها، أنها وعاء معرفي وأيدولوجي، تختزن رؤية المؤلف وموقفه من العالم⁽⁵⁾ خاصة إذا كان الخطاب الأيديولوجي، يؤدي دوراً مركزياً، ويعد جزءاً من الإخراج النهائي للأثر⁽⁶⁾ يقول:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإنني إلى قوم سواكم لأميل
فقد حُمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطيات مطايا وأرحل

كان المفترض أن يكون نصه صدى صوت المجتمع وصورته لكن الشنفرى صاغ مشروعه على أرضية مختلفة بغية إعادة إنتاج مجتمع مختلف، إذن لا بد أن

(4) يوسف بكار، بناء القصيدة، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط1، ص202.

(5) خطاب المقدمات في الرواية العربية، عبدالملك اشبهون، ص87، عالم الفكر، 2004، ع2، مج 33.

(6) عبدالملك اشبهون، خطاب المقدمات في الرواية العربية، ص88.

يكون نصّه مختلفاً وأن يعكس نصه ومطلع قصيدته هذا الاختلاف، يقول ابن قتيبة (وسمعت بعض أهل الأدب، يذكر أن مقصد القصيد، إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكى وخاطب الربيع....⁽⁷⁾)، ويعلق يوسف بكار معلقاً (هذا النص يكشف عن أشياء في فهم ابن قتيبة للقصيدة، فهو يرى أن لا مندوحة من المقدمة، التي تتألف من الوقوف على الأطلال والغزل، هذا الشرط القسري يؤكد ابن رشيق حين يعيب الشعراء الذين يهجمون على الغرض مكافحة، ويتناولونه مصافحة...⁽⁸⁾) ألا يثير هذا الرأي النقدي القديم أسئلة من نوع خاص على مقدمة اللامية ومطلعها؟ ألا تدفع هذه المقدمة إلى التساؤل عن طبيعة مقولة النص الأساسية؟ أليست هذه البداية من البدايات الغريبة والمفاجئة؟ أليس هذا اتجاه سير مخالف لمعظم الشعراء في مفتتح قصائدهم؟ ثمة أسئلة كثيرة تطرحها مقدمة اللامية. ولعل مطلع القصيدة بشر بولادة أفق انتظار جديدة، ينم بالضرورة عن تحول في الذوق الشعري⁽⁹⁾ ينبئ بهذا الفهم بداية القصيدة.

ويذهب الباحث إلى أن الشاعر فنياً وموضوعياً، خالف الشعراء في زمانه، وخالف من جاء بعده في بناء قصيدته، والحديث عن ثراء القصيدة الفني إلى جانب الوصف لمضمونها الاجتماعي، يثير الشيء الكثير عن رؤية الشاعر لبناء القصيدة، فبالإضافة إلى عدم وقوفه على الأطلال أيضاً، لم يتحدث عن النسيب الغزل رغم إلحاح النقاد عليه، فالمرأة اختفت من قصيدته بل استبدل الحديث

(7) نقلاً عن بناء القصيدة في النقد العربي القديم، يوسف بكار، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط1، ص212.

(8) المصدر نفسه، ص213.

(9) شكري المبخوت، جماليات الألفة، 99، بيت الحكمة (1993)، تونس.

عنها، بصفات لا تليق بالرجل، أو نفى صفات عن الرجل، لا تليق إلا بالمرأة وهذا أسلوب جديد، ولم يتشبث بالمكان، تشبث جمهور الشعراء في الأطلال، ولم يأبه برأي النقاد في ذلك، إذ عدو ذلك من أساسيات بناء القصيدة، والسلم الذي يجب أن تبنى عليه، ولقد ألح الشعراء على النسيب (فشكا شدة الوجد، وألم الفراق، وفرط الصباية، والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه ويستدعي به إصغاء الاسماع إليه، لأن النسيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، كما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وألف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً به بسبب، وضارياً فيه بسهم⁽¹⁰⁾.

إن الشنفرى وطّن روحه ونفسه على تكوين المعاني من منظور خاص، ويتعامل مع هذه المعاني من خلال هذا المنظور لأن ما يشغله أكبر مما هو متاح بعامّة الناس، ولأنّه بعيد الهمّ والهمة، عاقب جسده موطن الشهوات، ولم يمكنه العبّ من الملمات، بل أرهقه وأتعبه، نظراته الفلسفية للحياة وطريقة عيشها ألزمته بهذا السلوك الصعب، ولا يملك الإنسان إلا وإنّ يحترمها وأن اختلف معها، وقبل الشاعر التصادم مع هذا الخط من السير فنياً واجتماعياً، فلم تحتلمه القبليّة فاضطر الى النفي القصري من جهة قبيلته، الاختياري من جهته، وهذا تحول خطير، أن يتبلور وعيه على الرفض والاختلاف عليه اختياريّاً، وهذا صوت أخطر أن يسمع في وسط اجتماعي قائم على السلطة والثروة فكان من المحال أن يسمح لهذا الصوت أن ينتشر ويتكاثر من يسمعه، واعتبر صوتاً مريباً مزعجاً، لا بدّ من اقصائه بعنف بدلاً من احتوائه.

(10) يوسف بكار، بناء القصيدة، ص212.

فمشروع الشنفرى إذًا، يمثل صورة جديدة تعكس رؤية جديدة، تتصادم مع الصورة النمطية، صورتان تتحركان في فضاء زمني متضاد يضيق به مكان واحد، فكان لابدّ من تبديل المكان، لأنّ مكان القبيلة أضحى يضيق به ويشعر بفداحة التحول المفاجئ، فكانت حركة الشنفرى نحو المجهول في رحلة محفوفة بالمخاطر، خالقه صورة جمالية بما فيها من تحد وإصرار وصمود تؤسس لبناء منظومة قيم ذات أبعاد إنسانية، فالصورة الجمالية تبنى في ذهن المتلقي، اعتماداً على القيم التي تحملها، قبل أن تدرك في لغة المبدع وعمله، تدرك في انفعالاته النفسية وتأملاته الذاتية الداخلية، وهذا هو السر في اختلاف قيمة النصوص الإبداعية⁽¹¹⁾.

فالكريم عند الشنفرى إنسان يرفض الخنوع والذل والعبودية، وبيت الشعر القادم يلعب دوراً مركزياً في توجيه فكر المتلقي لهذا الفهم ويؤسس، وهذا ما يمنح البيت الشعري لدى متلقي النص قيمة ذات تأثير جمالي وهذا هو السرّ في اختلاف قيمة النصوص الإبداعية⁽¹²⁾، فكان لابد للشنفرى أن يقدم سلوكاً عملياً في الانتصار على ذاته وعواطفه ويغادر المكان الذي لا يوفر له الكرامة واحترام إنسانيته يقول:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل

هذا البيت يشكل حضوراً نفسياً، ثقيل العبء على القبيلة ذات البعد السلطوي، هذا الصوت أضحى بمثابة استجواب لمنظومة القيم والأعراف والتقاليد

⁽¹¹⁾ أحمد المنادي، التلقي والتواصل الأدبي، عالم الفكر، مج 34، ع1، 2005، ص185.

⁽¹²⁾ المصدر نفسه، ص185.

والمرجعيات السائدة في الثقافة المجتمعية القبلية، هذا البيت بمثابة استجواب لتلك القيم التي ترسخ العبودية والذل، هذا الاستجواب جسد موقفاً مقلداً للقبيلة، قد يسهم في خلق واقع جديد، يرتبط بفكرة النظر لطبيعة العلاقة بين المجتمع والفرد من جهة ومن جهة أخرى لطبيعة العلاقة القائمة بين الإنسان والمكان، والمكان عندما يعجز عن أن يكون ملاذاً للإنسان يفقد الإنسان ارتباطه به ويفقد المكان قيمته المعنوية، هذه الممارسة القرائية من حيث هي بعد تفسيري لخطاب مقدمة اللامية تستدعي بناء علاقة بين النص والواقع الذي يعيشه الشنفرى:

لعمرك ما بالأرض ضيق على امرئ سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل

فالبينة المكانية، أضحت طاردة غير جاذبة، وهي مصدر الأذى له، فلا بد من البحث عن مكان آخر يحقق فيه إنسانيته وحرية، حيث يقول (13):

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل

وظاهر البيت يبدو أنه إقصاء اختياري، وباطن النص كله إقصاء إجباري، إنَّ مبدأ النفي له ما يبرره لدى القبيلة، ويجد له منفذاً داخل النص، إذ يقدم النص إقصاءً واضحاً للشنفرى وكل من يتفق معه، بناء على خلفياتهم المعتمدة، من وجهة نظر القبيلة، وهو إقصاء من أصعب اللحظات بما تحتويه من إحساس مفارق، وهو خطاب ينصب على المكون الأساسي لفكرة القصيدة ويحيل عليه، إنَّ نواميس اللغة الناظمة للأفكار التي يتبناها الشنفرى، تخفي خلفها المفهوم الثاوي في ظلال الألفاظ، رصيد لغوي وثقافي ضارب في السياق الاجتماعي، وهذا أسلوب مبكر، هذا صوت جريء فنياً على صعيد بناء القصيدة من ناحية

(13) ديوان الشنفرى.

الموضوع الذي تطرحه، لأنه ناتج عن احتياجات الشاعر النفسية والمعنوية، ويذهب الباحث إلى القول أنه لابدّ للتحليل الفني الكامل لنص القصيدة، أن يذهب لما هو أبعد من النص، ليحدد الروابط بين النص والقيم التي تحكم السلوك الإنساني، لكي يتمكن من تكوين صورة للثقافة المجتمعية السائدة في عصر الشاعر، لكن يرى الباحث أن هذا الفكر لم يحظ بالاهتمام الكافي، لأن النص يتداخل فيه الفني بالاجتماعي، ويحرم الاجتماعي الفني من الشيوخ والانتشار، بالرغم من أنه يحمل قيمة مهمة بالنظر إلى سلطة النقد والنقاد.

المحور الثاني:

يتحدث الشاعر عن قيمة يقدها العربي في الجزيرة العربية "الإقدام والشجاعة" بالتزامن والترابط مع قيمة الكرم، وهما موضع الفخر والاعتزاز عند العربي يقول في اللامية⁽¹⁴⁾:

وكل أبيّ باسلٍ غير أنني إذا عرضت أولى الطرائد أبسلُ
وإن مُدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجمع القوم أعجل

فالشاعر عند الحديث عن الشجاعة يرسم صوراً غاية في الروعة يقول:

إذا زل عنها السهم حنت كأنها مرزاة تكلّى ترن وتعول

صورة تشبيهية ملأها الإعجاب في تصوير شدة الرمية، صورة سمعية، بمعنى لا يستطيع أن نصل إلى عمقها، إلا من خلال توظيف حاسة السمع، والصورة التشبيهية التي يتضمنها البيت، تشبيه قوة السهم ووقعه على الصخرة الصماء،

(14) ديوان الشنفرى.

يخرج من ملامسة السهم للصخرة، صوت يحن، كما صوت المرأة الثكلى الفاقد، صوت حزين شجي فيه من الألم والحزن والأسى الشفيف الشيء الكثير، كل ذلك من أجل توصيف شدة الضربة التي يوجهها لعدوه.

استعان الشاعر في توصيل معناه في الصورة التشبيهية السابقة على الصورة السمعية "وتعتمد الصورة السمعية على تصور الأصوات وفعلها في النفس، فضلاً عن الإيقاع، وتواجهنا حشود للصور السمعية التي صنعها الشاعر، باعتماد المفردة ذات الدلالة السمعية أو الإيقاعية⁽¹⁵⁾.

ثم تابع في مواقع أخرى في الحديث عن الشجاعة التي تتطلب سرعة ورشاقة وخفة حركة قائلاً:

فأيمتُ نسواناً وأيتمت ولدةً وعدت كما أبدأت والليل أيلئُ

ولمتلقي هذا النص، تخيل مدى الدقة والسرعة والشجاعة التي يتمتع بها، وكذلك الرجولة العربية، التي تتأبى وتترفع، عن أن يمد الرجل سيفه على امرأة أو طفل، لأن من يفعل ذلك يعتبر جباناً، فالرجل لا يقابل إلا رجلاً، وهو بعيد عن كل منقصة، مثل هذه الصور التي تتحدث عن شجاعته تتكاثر، وللمتلقي الرجوع لنص اللامية ليقع على مثل هذه الصور، لكن ما يود الباحث الإشارة إليه، إن الشجاعة عند الشنفرى ليست التي تتحدث عن الجانب البدني، بل تتجلى الشجاعة في صور معنوية أخرى، كاتخاذ القرار والإباء والصبر على بعض الاحتياجات، التي قد ترتهن قراره أو تحد من طموحه أو عزيمته.

(15) الصورة الفنية معياراً نقدياً، عبدالإله الصائغ، ص 409.

يأخذ سلوك الشنفرى أشكالاً متعددة عند تقديمه لنفسه، إذ السلوك الذي يصاحب الأقوال يرفع من شأن القيمة التي يتجلى بها، والفضاء الذي تكونه الألفاظ الواردة في البيتين "صيغة التفضيل" تذهب إلى أبعد مسافة ممكنة من التخيل، حيث يتمركز المعنى الذي يريده، حيث يرتبط الكرم بالشجاعة بالضرورة، فكل كريم شجاع وكل شجاع كريم، وهذا ما يريده الشنفرى، أن تمارس الألفاظ والخطاب تأثيراً في المتلقي، مما يبوء الخطاب موقع الجمالية، فالتأثير هنا مبعثه اللفظ، فالشاعر عند الأقدام (أبسل)، وعند الطعام متأخراً ليس جشعاً، إذا أجشع القوم أعجل، وهذا شكل من أشكال التلازم بين البعدين الفني والاجتماعي، الفني الكامن في استخدام صيغة التفضيل في التعبير عن قيم اجتماعية إقدام وشجاعة وكرم، مقابل جبن وخوف ونهم وجشع، فهو أول من يتقدم في القتال، وآخر من يتقدم في الطعام.

يذهب الدارس إلى أن الشاعر، يصدر في ترتيب القيم التي يعالجها عن منطقيتها، والمنطق يعتبر وسيلة للاستدلال السليم، فالشاعر يعمل على بناء جمل واضحة، يسهل تحديد قيمتها الصدقية، وذلك ضمن البيئة العربية التي تواضعت على أن الكرم يحتاج إلى شجاعة، وأن الشجاعة في حد ذاتها خلق عربي سجيح⁽¹⁶⁾ والشنفرى يعي ذلك تماماً، ويدرك أيضاً أن تعيين المعاني التي تفيدها الملفوظات الواردة في سياقات محددة أمر متيسر لعامة المتكلمين⁽¹⁷⁾ إلا أن النص القادر على إحداث الأثر في المتلقي، والمتمثل في إقناعه بصدقته، هو النص القادر على إقناعه، حتى يظل مصدر الجمال والتأثير عقلياً ونفسياً؛ لذلك

⁽¹⁶⁾ الحجاجيات اللسانية، راضي الرشيد، عالم الفكر، مج34، ص210، ع1، 2005.

⁽¹⁷⁾ الحجاجيات اللسانية، راضي الرشيد، عالم الفكر، مج34، ص220، ع1، 2005.

يلجأ الشاعر إلى تعليل التقديم والتأخير في ترتيب القيم التي يتحدث عنها، والتي يصدر عنها، يقول الشاعر⁽¹⁸⁾:

وما ذاك إلا بسطةً عن تفضلٍ عليهم وكان الأفضل المتفضل

هنا يستعمل الشاعر أيضاً، صيغة التفضيل (أفضل) واستخدم هذه الصيغة ليدرك المتلقي الفرق بين الرجال، إذ أن سعة عيشه وكرمه، منعه من أن يمد يده، قبل أن تمتد يد القوم، وكان مما وقر في منظومة القيم العربية، أن الرجل الكريم، هو من يطعم ضيوفه قبله، وهذه صفات الشيخ، شيخ القبيلة الذي يؤمن احتياجات ضيوفه أو صحبه أولاً، إذ قدمهم على نفسه، والشاعر قدم صوراً مختلفة ومتعددة للشجاعة التي كان يبديها في مشوار رحلته، فهو يمتاح من العادات والتقاليد أشكالاً مختلفة لمحمود القيم، وينتقل الشاعر إلى قيمة اجتماعية أخرى ترفد القيم السالفة، تجسد الكرامة الإنسانية وهي الصبر على احتياجاته والتعالي عليها حتى وإن كانت غريزته حيث يقول⁽¹⁹⁾:

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحاً وأذهل
واستقُ ترب الأرض كيلا يرى له عليّ من الطول امرؤ متطول

فالشاعر لديه استعداد تام ليلتهم التراب عند الحاجة، حتى لا يتفضل عليه إنسان أو يمن، وهذا السلوك والفهم لمفهوم العزة والكرامة، شائع ومعروف في الثقافة المجتمعية العربية، فعند استجواب منظومة القيم والأعراف والمرجعيات القبلية السائدة حتى يومنا هذا، لا بد أن تقدرك باعتزاز وفخر على إخفاء نهمك

⁽¹⁸⁾ ديوان الشنفرى.

⁽¹⁹⁾ ديوان الشنفرى.

وجوعك والتعالي عليه، فالسياق الذي تمّ إنتاجه عند الشنفرى، يحدد الروابط بين النصّ والقيم الاجتماعية، التي تسمح بتكوين صورة للثقافة الاجتماعية الراضية للعبودية والخضوع، الذي تمارسه القبيلة على أفرادها، وفق منطق القوة ورفع الغطاء الاجتماعي عنه وارتهان قرارهم بممارسة الضغوط عليهم والتي منها لقمة العيش.

يقول أيضاً متابعاً مسار الرفض معللاً عدم قبوله لاتكال الخنوع والذل:

ولكن نفساً مرة لا تقيم بي على الذأم إلا ريثما أتحول

يقول أنه يمتنع عما مر من الصفات التي ذكرها للآباء الذي يملأ نفسه، فهي لا تصاحب الضيم إلا بقدر ما تتحول عنه، ينتقل الشنفرى من المعالجة النظرية، إلى حيز الجانب التطبيقي، فالسياق في البيت، يستنفر طاقة الإنسان التي تأبى الضيم، وكأنه هناك قطيعة ومسافة بينه وبين التفكير في توطين نفسه على الدّل، أو قبوله لحالة من الانغلاق التام على كل هذه المفاهيم، هذا ما تشي به النبوة الخطابية التي يحملها مضمون البيت، هذا الخطاب الشعري يوازي الخطاب السلطوي للقبيلة الذي تمارسه عليه مما يمنح المتلقي التذاذاً بمعاني البيت، فصرامة الجمل، تقف جنباً إلى جنب صرامة المواقف من القيم المنحطة في الواقع.

لذلك قام باستبدال قومه وأصحابه ممن رضوا بهذه الطريقة من العيش؛ لأنهم لا يمتلكون صفاته ولا أخلاقه ويقوا أسرى لحاجاتهم المادية وفقدوا قيمهم الإنسانية، وبحثاً عن حياة مرجوة عبر عقم الظلم وافتقاده الحرية والكرامة يقول⁽²⁰⁾:

(20) ديوان الشنفرى.

ولي دونكم أهلون سيد عملس وارقط زهلول وعرفاء جيأل
 هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جرّ يخذل
 هؤلاء يمتازون بصفات قبلية أصيلة، لا يخذلون صاحبهم، ولا يذيعون سره.

قيمة لغوية تتجلى في الحوار بينه وبين رفاقه رغم اختلاف اللغة، تكشف عن مجموعة من الصفات التي تتحلى بها هذه الحيوانات.

والذي مصدرهما الغنى وكثرة الأموال، غالباً، لأنّ رداءة الزمن الحاضر، شغلت بالبحث عن القيم المادية التي تعلي من مستوى معيشة البشر، وتحط من آدميتهم وإنسانيتهم بحيث تحولهم إلى وحوش، ملغية الجوانب المضيفة في الإنسان، يقول⁽²¹⁾:

واعدم أحياناً واغنى وإنما ينال الغنى ذو البعده المتبذل
 فلا جزع من خلة متكشف ولا مرح تحت الغنى أتخيل

يقول أنا لا تؤثر في نفسي حاجة اكشفها للناس، ولا اختال بالثروة أمام الناس، إنما هما أمران عارضان يذهبان ويأتیان عن مقوماته الشخصية من خلال نفي الذي تتضمنه بعض الأبيات التي عبّر عن رفضه للواقع مرات عديدة، والنفي في الأبيات القادمة، مرتبط وجوده بهذا الرفض، حتى غدا الرفض مكوناً رئيساً لهذه التيمية التي اتخذت من التكرار للنفي علامة واضحة، هذا التكرار يفتح نقاشاً واسعاً على منظومة القيم والأفكار، فالشغف بالآبيات القادمة هذه يسعى للكشف عن الأساليب التي بها تتشكل القناعات بالتبعية لشيخ القبيلة وزعاماتها، فهو

(21) ديوان الشغف.

يطلق صرخة في وجه هذه القوة الاجتماعية، ويؤسس لحالة تصادم، تسهم في ولادة عدد من المفاهيم، أو إعادة إنتاج هذه المفاهيم ذات المرجعيات والأشكال التي تقف في وجه الأشكال السلطوية، وهنا يظهر جلياً الصراع بين المركزي والهامشي، وهو يعمل على إعادة كيفية بناء الذات الحرة المنطلقة بلا قيود، فهو يهدد الزعامات التي بدأت تشعر بفداحة التحول المفاجئ، والتي أصبحت تشكل حضوراً نفسياً ثقيل العبء على القبيلة، ثم يقول مؤكداً على ما صادر عليه في القيمة السابقة ويبرر ذلك متحدثاً بقيمة أخرى مكروه إنسانياً، وفي المجتمع العربي بشكل خاص، الكبر والخيلاء، سيعرض له البحث، بعد قليل، عند الحديث عن صفات أخرى، عندها ستعكس لغة الشاعر الواقع الذي يريد تغييره، لذلك بنية اللغة تنتج الواقع الذي يريد يقول⁽²²⁾:

ولست بمهياف يعشي سوامه	مجدعة سقبانها وهي بهل
ولا جباء أكهي مرب بعرسه	يطالعها في شأنه كيف يفعل
ولا خرق هيق كأن فؤاده	يظل به المكاء يعلو ويسفل
ولا خالف داريه متغزل	يروح ويغدو داهناً يتكحل
ولست بعل شره دون خيره	ألف اذا ما اهتاج اعزل
ولست بمحيار الظلام اذا انتحى	هدى الهوجل العسيف يهماء هوجل

يعبر النفي بوضوح تام عن مجموعة من القيم التقليدية غير المقبولة لدى الشنفرى، هذا النفي الموجود في الألفاظ التي استعملت للتعبير عن الرفض لمجموعة من الصفات التي يتبرأ منها، يثير مجموعة من التساؤلات؛ لأنها لا

(22) ديوان الشنفرى.

تحيل على واقع عادي يعيش به أو سيعيش به، لذلك قام بتكرار النفي مرات عديدة، بحيث أصبح النفي المكون الرئيس بهذه الثميمة التي يتبرأ بها من صفات كثيرة.

ويتساءل الباحث أية علاقة يقيمها هذا الرفض لهذه الصفات، ليتجلى بعدها الهدف الذي تقوم عليه القصيدة، هذا النفي ليس سوى ذريعة، لكشف أشياء عميقة جداً داخل المجتمع القبلي، ويعكس رغبة في تسليط الضوء على زاوية انسانية، هي زاوية الذات بكل ما تحمله الذات الإنسانية من معنى، إنَّ أبيات النفي المكررة، تعكس عدم تفاهمه مع من يحمل هذه الصفات، وكأنَّ هناك قطيعة، ومسافة تُعدّ مجازفة وأشكالاً، وتجعل من استئناف الحياة بهذه الأخلاق مستحيلة، هذا ما تفيده الألفاظ عند معابنتها في سياق الأبيات التي حملت النفي المكرر، ويقدم لحياة أكثر صعوبة قد لا تناسبها هذه الصفات أو من يتمتع بها.

ثمة لوحة أخرى يبرز فيها قدرة الشاعر على الصبر على الشدائد التي تعترض سير حياته، في هذه اللوحة الشعرية التي دخل فيها الشاعر في حالة من التماهي بينه وبين الذئاب، وهو ما سمي بالمعادل الموضوعي، حسب فهم اليوت بقوله (أن التأثير الفني الذي تتركه القصيدة في متلقيها، لا يتحقق إلا بعد ترجمة الإحساس إلى موضوع، بمعنى إن الإحساس الذي يثيره العمل الفني في نفوسنا، يختلف في طبيعته عن الذي تزودنا به الحياة⁽²³⁾).

(23) المعادل الموضوع مصطلحاً نقدياً، عناد غزوان، أقلام العراقية، ع9، 1984، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ص43.

فالمعادل الموضوع، وفق هذا المنظور، حال أو موقف، تكمن فيه مشاعر،
تعبّر عن عاطفة الشاعر، وتثير عاطفة مشابهة في المتلقي⁽²⁴⁾، وإذا ما ذهب
الباحث أكثر في تحليله لهذه اللوحة الاستثنائية التي خلع عليها الشنفرى صفة
الأنسنة على هذه الفئة من الحيوانات أو تحول عن أدميته في هذه اللوحة،
وتماهى مع عالم آخر، هو عالم الحيوان ولك أن تتأمل (والتأمل في عرف
الجرجاني وسيلة لاستكشاف جمالية النص وقوانينه المؤثرة وهو عملية تعتمد على
العقل قبل أي شيء آخر)⁽²⁵⁾ كم تحاول الألفاظ في الأبيات أن تصف الحال
الذي وصل إليه الشاعر ورفاقه، وأن تعيد تكوين هذه الحال وإنتاجها بصورة
مثالية، فيها من الشعور والتعاضد والتعاون وتقاسم المعاناة كما فيها من
الانتصار، أكثر مما فيها من الانكسار، يقول⁽²⁶⁾:

فضج وضجت بالبراح كأنها	واياه نوح فوق علياء تكل
وأغضى وأغضت واتسى واتست به	مراميل عزها وعزته مرمـل
شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت	والصبر إن لم ينفع الشك أجمل
وفاء وفاءت بإدرات وكلها	على نكظ مما يكاتم مجمل

رهان اللغة رهان أساسي في هذه اللوحة التي تجعل من حوار الذئب يتأرجح
في الكثافة الشعورية، هذه الأبيات تكشف عن رحلة من الإغراء الذي يظل أقوى
من الاكتشاف نفسه، رحلة البحث عن الطعام، إذ التحديات والمعلومات التي

⁽²⁴⁾ المصدر نفسه، ص34.

⁽²⁵⁾ التلقي والتواصل الأدبي، أحمد المنادى، عالم الفكر، 2005، ع1، مج 33، ص200.

⁽²⁶⁾ ديوان الشنفرى.

تحصل عليها، والمتوفرة أبداً، لا تسمح بتحويل الشك في إيجاد الطعام إلى يقين، أن التكرار في الأفعال لا يقوم إلا بمضاعفة هذه التساؤلات ونفاذ الأجوبة، كما هو انعدام حتى فرصة وجود الطعام، هذا التكرار يعكس الواقع الصعب، فيأتي الجواب بمزيد من الصبر ومزيد من التحمل وذلك لأن القيمة التي يبحث عنها تستحق كل هذا وهي التي تمنحه المكانة التي يرى أنه يستحقها.

جميع هذه الجهود في رحلة البحث عن الطعام تهدر عبثاً، لكن ما يثير الأسف هنا، الذي مبعثه التكرار باعتباره علامة لغوية بارزة، تكرر يحتوي على كل ما يتضمنه النص من إمكانات تعبيرية، لأن التكرار وثيق الارتباط بالمعنى العام لنص القصيدة، حتى في شريحة النفي السالفة الذكر، كان تكرر النفي يقدم ذات الإجابة ويمكن القول أنه لا يبدو الحديث عن التكرار منعزلاً، فإن الشاعر يصور خطورة الرحلة وصعوبة الاستمرار بالحياة، لكنه يصبر على هذه الخطورة، ولا يثنيه عن السير في رحلة البحث عن الإباء والكرامة، حيث قامت الأفعال المكررة برفع مستوى الإحساس بالخطورة، وتتبع القيمة الفنية للأبيات المكررة من كثافة الحالة النفسية التي تقترن بها⁽²⁷⁾ والتي يستشعرها المتلقي.

كما أن إطلالة هادئة على الصيغ التركيبية، ترينا التلازم بين البعدين الاجتماعي والفني، والتكرار بوصفه لازمة هنا، هو خطاب واحد يفهم على أنحاء تتكاثر بقدر ظروف البث وظروف الإنصات⁽²⁸⁾ لذلك هو يتجلد على الجوع، ويصبر عليه من أجل العيش في مجتمع يحقق فيه ذاته كسيد وليس عبد، إن عجز عن تحقيق ذلك في الواقع فهو، يبني مجتمعاً إكثانياً في خياله أو حتى مع

(27) قضايا الشعر العربي المعاصرة، نازك الملائكة، ص 287

(28) التلقي والتواصل الأدبي، أحمد المنادي، عالم الفكر، مج 34، ع1، 2005، ص 17.

عالم آخر من هذا الكون، هو عالم الحيوان الذي يقودهم ولا يقاد، لأنه أقواهم وأبسلهم وأكرمهم.

حاول هذا البحث أن يأتي على التداخلات الفنية والاجتماعية في نص لامية العرب، إذ تبين للباحث أن الشنفرى أبدى مهارة فائقة في ربط الاجتماعي بالفني، وجاء الموضوع الاجتماعي متماهياً مع الموضوع الفني، جاء ذلك في مقدمة القصيدة التي ابتعدت عن الأعراف الفنية المعمول بها في بناء القصيدة العربية، فبقدر ما ابتعد الشاعر عن الوقوف على الأطلال والنسيب، ابتعد عن إنسان ذلك المجتمع ومكوناته الاجتماعية، وابتعد أكثر عن المكان الذي يحل به المجتمع القبلي، ورفض العيش به، لذلك جاء الفني وتكرار الفني ليؤكد الفني أن الشنفرى يحمل منظومة من القيم والعادات والتقاليد، مختلفة تمام الاختلاف عن الذي تحمله قيم القبيلة وإنسانها، فاضطر إلى الفني الاختياري وإقصاء نفسه، عن كل ما ينال منه، وفق قيم الذل والحرص والخوف، بحثاً عن الحرية والكرامة، فكلفه ذلك مشقة الحياة ونصبها وكان مقتنعاً راضياً عن كل ما فعل.

المراجع

- 1- صالح غرم الله زياد، مجاز العائق الاجتماعي في القصة السعودية القصيرة، عالم الفكر، 2005، ع1، مج34، ص68، الكويت.
- 2- عبدالملك اشبهون، خطاب المقدمات في الرواية العربية، عالم الفكر، 2004، ع2، مج33، ص87.
- 3- معاذ السرطاوي، مختارات من الشعر العربي القديم، ط1، 1989، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع.
- 4- شكري المبخوت، جماليات الألفة المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، 1993، ص99.
- 5- الراضي الرشيد، الحججيات اللسانية، عالم الفكر، الكويت، مج34، ع1، 2005، ص22.
- 6- نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، منشورات دار العلم للملايين، 1985، ط5، ص287.
- 7- محمد بن عياد، التلقي والتأويل، مجلة علامات المغربية، ع10، 1998.
- 8- يوسف بكار. 1982. بناء القصيدة في النقد العربي القديم، دار الأندلس، بيروت: لبنان، ط2.
- 9- عناد غزوان، المعادل الموضوعي مصطلحاً نقدياً، الأقلام، ع9، 1984، وزارة الشؤون الثقافية، بغداد.
- 10- أحمد المنادي، التلقي والتواصل الأدبي، عالم الفكر، مج34، ع1، 2005، الكويت.

- 11- عبدالإله الصايغ، الصورة الفنية معياراً نقدياً، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1987م.
- 12- عمرو بن مالك الأزدي، ديوان الشنفرى، دار الفكر العربي، بيروت- لبنان، ط1، 2003، جمع وتحقيق محمد نبيل الطريفي.
- 13- محمد علي أبو حمدة، في التذوق الجمالي للامية العرب، مكتبة الأقصى، عمان، ط1، 1982.